الصراحة في شعر الوجدان النسائي القديم

بقلم سالم علوان الجلبي

عقب الدكتور محمد مندور « الآداب ابريل ١٩٥٨ » على قول المرحوم الدكتور احمد زكي ابي شادى في تقديمه ديوان الشاعرة المصرية جميلة العلايلي الذي يلمح فيه ابو شادى ثورة جديدة على تلك التقاليد البالية فيجد صاحبته كاشفة في اطمئنان وفي شجاعة عن دخيلة نفسها في صدى احلامها المنغومة . فقال الدكتور مندور :

« ولقد يكون هذا الرأي صحيحا في مجموعه ولكنه من الخير والعدل ان نقر لعائشة عصمت تيمور التي ولدت سنة ١٨٤٠ وتوفيت سنة ١٩٠٢، بانها كانت قد تحررت من هذه التقاليد الغاشمة وقالت في الغزل والحب ولواعجه شعرا صريحا ... » اه .

ومن الخير والعدل ، ومن تمام الانصاف ايضا ان نبعد في سيرنا عائدين الى مواكبة شواعر قديمات لنجد ان هذه التقاليد الغاشمة كن قد تحررن منها منذ زمن قد يكون بعيدا وقد يكون بعيدا جدا عن ايام عائشة التيمورية . فاذا لم يكن الاسهاب ممكنا في حدود الموضوع فليست الاشارة كذلك على كل حال ، ولما لم يفعل الدكتور ذلك كان دخولي الى الموضوع لعل في ذلك بعض الفائدة .

فما من عجب في ان تحب المرأة ولكن العكس اعجب ، فقد خلقت المرأة ميالة للحب بطبعها فما بالك بالشاعرة .

وحين لا تجاهر المرأة بالحب فمن البدائه ان هذا لا يعني انها غير محبة. ولكن المجتمع وان عرف ذلك يريد من المرأة ان تكبت عواطفها وتدفن ما يعتمل في داخلها من الاحاسيس وما ينهش فؤادها من شتى ضروب العواطف والانفعالات ، حين يبيح لادنى الرجال كامل الحرية في هذا الشأن !!

والنساء يعرفن عن المجتمع ذلك ولا شك ، فيداري بعضهن المجتمع ويداورنه ويعمد بعضهن الى المجاهرة والمصارحة بكل ما يتيسر لهن من امكان ويلاقين من ضروب العنت في هذا السبيل ما يلاقين .

والشاعرات بعض هؤلاء النساء ، بل هن صفوتهن بالطبع الناطقات باسمهن العاملات على تمثيلهن في الميدان الجنسي . فمن المض لهن ان يتكبلن بهذا القيد الخانق ويرضخن لهذا الحيف الصارخ عن رضا وطواعية . ومن اجل ذلك يحاولن توسيع الثغرات في هذا الستار السميك كلما تيسر لهن ذلك .

كأن تعمد عائشة بنت احمد القرطبية الى المجاهرة بحبها الذي فضحته الدموع فلم تبق الى ستره عن العواذل من سبيل :

ولولا الدموع لما خشيت عذولا فهي التي جعلت اليك سبيلا

وحين تشق سلمى بنت القراطيسي بجمال جسمها وفتنته وترى مدى تأثيره وعمق وقعه في نفوس المعجبين ، تبيح لنفسها وصف هذا الجمال الاسر المشهور في بغداد يومذاك بقولها :

عيون مها الصريم فداء عيني واجياد الظباء فداء جيدي
ازين بالعقود وان نحري لازين للعقود من العقود
ولا اشكو من الاوصاب ثقلا وتشكو قامتي ثقل النهود

فهذه العيونَ الجميلة وهذا النحر الرائع الذي يزين العقود نفسها فيكسبها روعة وفتنة وهذه القامة الرشيقة كالغصن الرطيب تطفح بماء الشباب وتميس بسحر الجمال ، وهي ان شكت الثقل فلا تشكو من الاوصاب وانما كل شكاتها من ثقل تلك النهود النافرة الرعناء . كيف يهون على مثل هذا الجمال الاخاذ الا يجاهر بما حباه خالقه من فتنة ، والا يتمتع بلذة المحب !! وهل الحياة الا الحب ؟ وهل الحب الا الصبا والجمال ؟ واننا لنرى واضحا في قولها هذا مدى ما يعتمل في داخل الشاعرة من هياج عاطفي وغليان وجداني . يضايقها انها تملك كل هذا الجمال ولكنها لا تملك حق التمتع به على الوجه الذي تريد ، فما العبرة في ان يملك المرء ولكن العبرة في حق التصرف بما يملك .

اما علية بنت المهدي ، وهي الظبية التي ترتفع في قصور الخلافة بالنعمة الوافرة والخير الطاغي والترف الصارخ، فيطيب لها عذاب الحب وتسعى جهدها للتمتع بحلوه وبمره وبالوصل منه وبالهجر وبالعتب والرضا . ولا يسعها وهي اخت الرشيد ، الا ان تجاهر بذلك كله وترسم للحب الخطوط العريضة وتشير الى المسالك :

تحبب فان الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصر ، فان حدثت ان اخا هوى نجا سالما ، فارج النجاة من الحب
واطيب ايام الفتى يومه الذي يروع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فاين حلاوات الرسائل والكتب

وتشن حمدونة بنت زياد الاندلسية حملتها المهلكة على الواشين بها فتكا ذريعا باسلحتها النفاذة اذ تقول :

ولما ابى الواشون الا فراقنا وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك ودمعي ومن نفسي بالسيف، والسيل،والنار

وكيف يثبت الواشون امام سيف مقلتيك ، وسيل ادمعك ونارَ نفسك الملتهبة ؟.. الا ما اشد فتك هذه الاسلحة يا ابنة زياد !

وهي تشن هذه الحملة الكاسحة لتعبر عن مبلغ نقمتها ومدى سخطها على هذه التقاليد الجائرة والقيود الظالمة التي ترهق وجدان المرأة وتكبل عواطفها وتحملها من جراء كبتها رهقا .

ولكن ثمة اندلسية اخرى وهي « انس القلوب » لا تشهر على العذال والوشاة السلاح ولاتفتح معهم للحرب بابا ، بل تلقى السلاح من اول الامر فلا تمارى في واقع ولا تجادل فيما لا يصح الجدال فيه ، فالقضية عندها قد وضحت وبان الدليل:

نظري قد جنى علي ذنوبا كيف مما جنته عيني اعتذاري
يا لقومي تعجبوا من غزال جائر في محبتي وهو جاري
ليت لو كان لي اليه سبيل فاقضي من الهوى اوطاري

اما علية بنت المهدي فلا تعلن على العذال حربا شعواء ، ولا تستسلم استسلام مغلوب . بل تجادلهم بالمنطق وبالعقل وربما جرتهم الى جانبها حين تعلمهم انها منهم وانها كانت قبل الحب في صفهم .. وفي هذا من السياسة الحكيمة ما لا يستبعد من اخت هارون :

يا عاذلي قد كنت قبلك عاذلا حتى ابتليت فصرت صبا ذاهلا
الحب اول ما يكون مجانة فاذا تحكم صار شغلا شاغلا

وتضج الصبابة « بحفصة الركونية » وتلهبها نار الوجود فترسلها صرخة جهيرة مدوية حين تبعث برسالتها اليه وهي على احر من النار بانتظار الجواب ، ولا تنسى وهي على تلك الحال ان تغريه بمفاتن جسمها

الحلو ليعجل باللقاء ، فما من محب يستطيع الاصطبار على هذه الفتنة الكاوية . وها اننا نرى كيف تنصب المرأة الشباك وتلقى بالحب ، تماما كما يفعل الرجل . وللرجل ادوات صيده وللمرأة ادوات صيدها .

أزورك ؟ ام تزور ؟ فـــان قلبـي الى ما تشتهـي ابـدا يميـــل
فثغري مورد عـــذب زلال وفرع ذؤابتـي ظل ظليـــل
وقد املت ان تظما وتضحـــى اذا وافى اليـك بـي المقيـل
فعجل بالجواب فمـا جميـــل اباؤك عن بتيئة يـا جميـل

أترى اليها كيف تغريه بثغرها العذب الزلال وبفرع ذؤابتها الكثيفة الفاحمة وبهذه الشهوة العامة التي تنضح من الفاظها المتضرعة المستعجلة لقاءه .. انه الحب ، الحب الذي ملك على حفصة لبها فهامت بحبيبها هذا الهيام المحموم الذي جعلها في اشد حيرة من غيرتها عليه :

أغار عليك من عيني رقيبي ومنـك ومن زمانـك والمكـان
ولو انى خبأتـك فـي عيـوني الى يوم القيـامة ما كفانـي

فان في هذا القول لحرارة وجوان لافحة وصدق تجربة في هذه الحيرة المربكة تعيشها الشاعرة . ثم صراحة لا تدانيها ابدا صراحة اية شاعرة معاصرة . ومع ذلك فهي لا تصل الى الحد الذي وصلت اليه ولادة بنت المستكفى اذ تقول :

ودع الصبر محب ودعـك ذائع من سره مـا استودعـك
يا اخا البدر سناءا وسنـى حفظ الله زمانـا اطلعـك
ان يطـل بعدك ليلى فلكم بت اشكو قصر الليـل معـك

وانت ولا شك تعرف ، بم يقصر الليل على طوله بين المحبين ؟!

ولادة التي تكتب الى ابن زيدون :

ان ابن زيدون على فضلـه يلهج بي شتما ولا ذنب لـي
يلحظني شزرا اذا جئتـه كأنما جئت لاخصـى علـي

و « علي » هذا غلام لابن زيدون !!

ولادة التي تقول في ابن زيدون بعد مقاطعته :

ولقبت المسدس وهو نعـت بفرج بوران ابـوهـا الحسن
فلوطـى ، ومأبون ، وزان جاءتك من ذى العرش رب المنـن

وتخاطب الاديب الاصبحي بقولها :

يا اصبحـى اهنأ فكم نعمـة وديوت ، وقرنـان ، وسارق
قد نلت باست ابنك ما لم ينـل تفارقك الحيـاة ولا يفـارق

فهل تركت ولادة بابا للصراحة لم تطرقه اوحدا لم تصل اليه ؟! وهل بعد هذه الثورة اللافحة من مجال لثائرة ان تثور الى ابعد منه ؟

اما ام الضحاك المحاربيه ، فهي حين دخلت حلبة الهوى فاقت العشاق جميعا في السباق فكانت الرائد الاول والسابق الذي لا يلحق ، يلبسون ما بلى من ثيابها ويشربون فضل شرابها ويهتدون في الحب بهديها .استمع اليها كيف تقول :

جريت مع العشـاق في حلبة الهوى ففقتهم سبقـا وجئت على رسلي
فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا الا الثياب التـي ابلـى
ولا شربـوا كأسا من الحب مرة ولا حلوة الا شرابهم فضـــلى

ثم انها لتذهب الى ابعد من ذلك حين تصف شفاء الحب فتكشف عن زيف اسطورة الحب العذرى وتقرر بوضوح لا لبس فيه ان الحب في الحق ان هو الا هذا الحب الجسدي الذي لا يتعدى شهوة الجنس التي تتحكم في الانسان ايما تحكم .. وقد يشفى المريض بالحب حين يأخذ هذا الدواء: شفاء الحب ، تقبيل وضـــم وجر للبطون عـلى البطـــون ورهز تهمل العينـان منـــه واخـذ بالمناكب والقـرون

وقد جارت الشاعرات يومذاك الرجال في هذا المترك وسرن في حيثما ساروا ولم يتخلفن عنهم في كل ناحية منه .

ارسل توبة الى ليلى الاخيلية مرة يقول :

عفا الله عنهـا هل ابيتن ليـلة من الدهر لا يسري الي خيـالها

فاجابته :

وعنه عفاربي واحسن حـاله عزيز علينـا حاجة لا ينـالها

ودخلت ليلى بين النابغة الجعدى وسوار بن اوفى في مناظرة شعرية فحالت الى سوار فهجاها النابغة بقوله:

الا حييا ليـلى وقولا لها هـلا فقد ركبت ... اغر محجلا

فلم تتخلف ليلى عنه بل اجابته بمثل ما قال او باشد منه لذعا :

انابـغ ان تنبغ بلؤمك لا تجـد للؤمك الاوسط جعـدة مجعـلا
تعيرني داءا بامك مثـله واي نجيب لا يقـال له هـلا

والقى علي بن الجهم على شاعرتنا البصرية « فضل » بحضرة المتوكل هذا البيت لتجيزه :

لا ذنبهـا يشتكـي اليهـا فـلم يجـد عندهـا مـلاذا

فاتمت :

ولم يـزل ضارعـا اليهـا تهـطل اجفـانه رذاذا
فعاتبـوه ، فزاد عشقـا فـمات وجدا ، فـكان ماذا ؟!

وعتب عليها سعيد بن حميد انها كانت تنظر الى بنان المغني فقالت :

يا مـن اطلـت ترسـي فـي وجهـه وتنفسـي
افديـك مـن متدلـل يزهـو بقتـل الانفـس
هبني اسأت وما اسـأت،بلى بلـى اقـر انـا المسـي
احلفتنـي الا اسـارق نظـرة فـي مجـلس
فنظرت نظرة مخطـيء اتبعتهـا بتفرسـي
ونسيـت انـى قـد حلفـت فما عقوبة مـن نسـي

فليست الشاعرات المعاصرات والحال هذه ، هن اللواتي بدأن في تحطيم هذه القيود الفاشمةوالتحرر منها بل سبقتهنالى الثورة عليها ثورة صاعقة جداتلهن سابقات حطمن تلك القيود اي تحطيم وفحشن مع الرجل في ادبه المكشوف اي فحش .ولعل للترف الذي تميز به ذلك العهد والمجون الذي شاع فيه ، وللتيارات الفكرية المتضاربة المتحررة ، ثم لقرب اختلاط القوم بعناصر من قوميات مختلفة اختلاطا كليا امتد الى جميع نواحي الحياة، لعل لكل هذا كبير دخل في تقبل المجتمع انذاك هذه الصراحة المترفة التي املاها روح ذلك الزمن .. وربما اتخذ المجتمع منها وسائل اثارة وجدانية او وسائل تسلية وترفيه ، او حتى للهو والعبث .

وعندي ان شوط ولادة والمحاربية ومن سارت بدربهما ، بعيد حقا اجل المرأة عن ان تصل اليه ، فللمرأة حد تكون عنده كالفاكهة الناضجة النضرة تتحرق اليها القلوب وتشتهيها الاعين ، فان تجاوزته صارت كالفاكهة التي عفنها الفساد تقتحمها العيون وتعافها الاذواق .

وما هكذا نريد المرأة .

ولعلنا بهذا قد اثرنا بعض الجوانب بصراحة لم نكن لنهدف اليهـا لذاتها ولكن الموضوع حتم ذلك فعفوا ومعذرة

بصره ـ العراق

سالم علوان الجلبي